فشرِّد بهم من خلفهم

بقلم: 

 الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه ، أما بعد :

فإن حال أمتنا عجيبٌ جدُّ عجيب ، ومواقف كثير من أبنائها تبعث على الشفقة أكثر مما تبعث على الاستغراب ، والحوادث اليومية والأحوال المتعاقبة تكشف لنا كل يومٍ وجهاً جديداً من وجوه الجهل ، ووجهاً جديداً من وجوه النفاق ، ووجهاً جديداً من وجوه الذل وهكذا في تعاقب سريع وتغير مذهل يذكر بحديث النبي ﷺ الذي يفسر به شيئاً من هذا الجو الذي نعيشه " بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا"

وإن في عملية اختطاف العسكري الأمريكي (بول مارشال) انكشاف أقنعة ، وتعرفاً على همم منحطة ، ونفوس ذليلة حائرة تنصر الظالم على المظلوم ، وتفزع للأعداء وتتعامى عن الأقرباء ، وإلا فبأي شيء تفسر المطالبات الساقطة من قبل عدد من المتكلمين بالإفراج عن هذا المختطف مع علمهم بحاله وأنه رجل كافر محارب ، عسكري بلغة أهل الزمان ، يعمل في مجال الطيران العسكري ، وهو من منظومة الجيش الأمريكي الذي يقتل المسلمين ويعذبهم ويؤذيهم في كل مكان ويناصر أعداءهم في فلسطين والفلبين وكشمير وغيرها ، أي شبهة تبقى في قتل رجل عسكري محارب يدخل بلاد المسلمين ليعمل في سبيل الحرب على الإسلام ويتنعم بخيرات المسلمين ويُعطى أجراً على هذه الجريمة البشعة ، هل يريد هؤلاء أن يروا هذا العلج يباشر قتل الأطفال واغتصاب النساء في بغداد أو كابل لتطيب نفوسهم بقتله ؟ أظنهم والله حتى لو رأوا ذلك لبحثوا له عن أعذار ما داموا في حكم ابن سعود وهو يحملهم على القول بما يشتهيه ، لأن مقتضى هذا الفهم المعوج أن يكون (بوش ، ورامسفيلد ، وكولن باول ، وغيرهم) أبرياء مسالمين لأنهم بنفس حال هذا المختطف فجميعهم لا يلبس لبسة الحرب العسكرية ، وغالب أوقاتهم يقضونها في بلادهم أو بعيداً عن ميدان الحرب و لم يمس جسد طفل ولا امرأة و لم يحمل سلاحاً في المعركة !!

لا شك أننا نعرف الأسباب التي تدفع إلى مثل هذه المواقف ، وخلاصتها حب الدنيا وكراهية الموت ، والهوان والذل الذي أصاب الأمة وليس هذا تحليلاً سياسياً من عند أنفسنا أو فكراً أنتجته عقولنا بل هو نص الهدى الذي جاء به محمد ﷺ في قوله : " إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وأخذتم أذناب البقر سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم" وفي قوله : " أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليترعن الله من قلوب عدوكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قالوا وما الوهن ، قال : حب الدنيا وكراهية الموت "

ولقد كنا نحسن الظن ببعض من يورد الشبهات على جهادنا ولكن تبين لنا أن كثيراً منهم ليس له هم إلا إيقاف الجهاد بأي وسيلة بدليل منازعته لنا في الواضحات البينات المحكمات مما يدل على أنه لم يرد حقاً بما يعترض به فيما يظنه من الشبهات .

إني أدعو كل منصف إلى قراءة هذا الحديث وتعليق الشيخ القائد المجاهد الشهيد – بإذن الله – يوسف العييري رحمه الله ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عمران بن حصين ﷺ قال : كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلا من بني عقيل وأصابوا معه العضباء فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق قال يا محمد فأتاه فقال ما شأنك فقال بم أخذتني وبم أخذت سابقة الحاج فقال إعظاما لذلك : أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف " وهذا الحديث ورد في شأن رجل غير مقاتل بالفعل بل بالقوة أي في عرف المعاصرين هو مدني ومع ذلك أخذه النبي ﷺ بجريرة حلفائه وليس بذنب قومه فضلاً عن ذنبه هو ؟

قال الشيخ يوسف العييري رحمه الله : وبعد عرض بعض أقوال العلماء في ذلك يتبين للمستنكر أن قتلنا للأسرى لم يكن عن هوى في أنفسنا ، بل إننا رأينا المصلحة في قتلهم مقابل المطالبة برجل واحد ، ولو قال أحد لنا فما ذنب الأسرى التسعة إذا كان ذاك هو المجرم والله يقول ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ؟ نقول إن الأسير بوزره استحق القتل فإذا كان الله سبحانه وتعالى أجاز لنا أن نقتل الأسير فقط لأنه أسير ، أي لم تكن هناك مؤثرات أخرى ترجح قتله ، فكيف والحال هذه بعدما كان قتله بجريرة غيره أعظم مصلحة ، ونعاملهم بقول الله ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ فنعاقب بعضهم بجريرة بعضهم أردع لهم وأنكى ، وقد عامل الرسول ﷺ رجلاً بجريرة قومه ، وقد روى ذلك الحديث مسلم عن عمران بن حصين ... فلم يكن الرسول ﷺ متجاوزاً بهذا الفعل فحال الحرب تقتضي مثل هذه الأفعال لضمان سلامة جند الإسلام ، بل إننا لا يمكن أن نحفظ أعراض المسلمين إلا بمثل هذه الأفعال ، ولنا مبررات أخرى قد لا تتبين لغيرنا أن في قتل الأسرى مصلحة راجحة متضحة لنا ، فإن مننا عليهم وقد فعلنا لبعضهم ، فهذا ما نراه يصلح لبعض الأشخاص ، وإن قتلنا فهي مصلحة تقتضي ذلك ، وإن فادينا فالفداء لبعضهم أصلح ، ولم نكن مقيدين بفعل واحد تجاه الأسرى ، بل إننا نتحرى الأصلح لحالنا وحال المسلمين في الأسرى ، ونعمل ما نراه أرجح من الأدلة لحال الأسير ، فلم تحمر أنوف بعض الناس قبل أن ينظروا في دليلنا واستدلالنا ، ونسأل الله أن نكون ممن عرف الحق وأحسن اتباعه "[هداية الحيارى].اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين .

